المنجز البلاغي والنقدي للسّكاكي في ميزان النقد المعاصر

أ. عبد الفتاح جحيش.

جامعة محمد الصديق بن يحي–جيجل

ملخص البحث:

يناقش هذا البحث، مستضيئا ببعض تحليلات ابن خلدون، الموقف السلبي لبعض النقاد والباحثين المعاصرين من مجهود السكاكي في تقنين الدرس البلاغي والنقدي، ويوصّف أهم أسباب سوء الفهم الذي تسرب لمعظم الأبحاث المعاصرة من الدراسات التاريخية والنقدية التي دشّنها كتَّاب النهضة العربية الحديثة، وذلك قصد توجيه الاهتمام لتصحيحها وإعادة قراءة عمل السكاكي قراءة جديدة مثمرة ومفيدة، تراعي خصوصية هذه المرحلة التاريخية في الفكر الإسلامي .

الكلمات المفاتيح:

(علم الأدب، التراث النقدي، النقد المعاصر، منهج القراءة، التجديد، الدرس النقدي والبلاغي)

The research summary:

This study discuses,in the light of Ibn Khaldoun’s reflections, the negative position of some contemporary literary researchers and critics vis-a-vis As-sakaki’s endeavour to establish a canonical course in literay criticism and rhetoric.Moreover,it analyses the most important reasons of misunderstanding which has pervaded most contemporary historical and critical studies pioneered by the authors of modern Arabic renaissance so as to raise awareness about the necessity to rectify these misunderstandings as a first step towards a more constructive and fruitful rereading of Sakaki’s work.Furthermore,the study argues that in order to achieve this goal, it is necessary to take into consideration the specificity of that era of history of islamic thought.

تمهيد

ينبغي التذكير بداية أن تراثنا النقدي لا يزال بحاجة إلى مزيد من القراءات الجادة والمتأنية لأنه عانى -في معظم القراءات السابقة- من أحكام عامة أحيانا، وجزئية إقصائية أحيانا أخرى، وتعرض لابتسار في الفهم حرمه من فاعليته ومهمته النقدية والمعرفية والتاريخية التي كان ينبغي أن يضطلع بها، كما حرم –نتيجة لذلك- مما يمكن أن يسهم به في تطعيم مباحث النقد واللسانيات والبلاغة المعاصرة، وقد اخترنا مثالا لذلك موقف الباحثين المعاصرين من جهود السكاكي في البحث البلاغي واللغوي والنقدي أو ما سماه هو (علم الأدب).

إن نزعة تصنيف أي تراث إلى قيم وغير قيم، والتعامل معه من منطلق إسقاط بعضه على حساب الاعتراف ببعضه الآخر، أو المقارنة بينه وبين غيره، أو المفاضلة بين نص ونص في تراث واحد أو متعدد -في تصوري على الأقل- عمل لا معنى له في ظل هذا الوضع الحضاري المأزوم لأسباب أهمها:

الأول: إن تراثات الأمم-وبحسب ما انتهت إليه بعض الدراسات الثقافية والأنثربولوجية المعاصرة- لا تتفاضل؛ فليس هناك تراث صالح للترميم والاكتشاف وإعادة القراءة في مقابل تراث آخر لا يصلح لشيء؛ ذلك أن أي تراث ليس شيئا ناجزا أو ماثلا ثابتا منتهيا حتى في مرحلة ضعفه وترهله مادام يتحرك ويحيا بشكل مستمر في تصورات أصحابه، ومادام يحكم رؤاهم ويتحكم بشكل أو بآخر في طبيعة سلوكاتهم، ويسكن منظوماتهم الدينية والثقافية والفنية والجمالية التي تتغير باستمرار، لأن هذه التغيرات لا يصلح تقييمها بمعيار الخطأ والصواب، أو تصحيحها بمبدأ

الأصالة والمعاصرة بمفهومه البسيط والمختزل، وإنما بمدى ملاءمتها للشروط التاريخية والحاجات الاجتماعية، والظروف الحضارية المستجدة، وهو في جوهره أمر يتوقف تحقيقه على مدى فاعلية الجهة التي تقرأه وتستثمره؛ أي القارئ والباحث وشروطه التاريخية والثقافية التي يصدر عنها في قراءته وبحثه.

الثاني: إن الفهم الذي تشكل في تصوراتنا حول تراثنا لا يعبر -في حقيقتة- عن الحاجات الأساسية التي نريدها منه، لأن هذا الفهم أو التصور تكون في ذهنيات غير ذهنياتنا، وعبر عن حاجات غير حاجاتنا، وتلون بألوان الجهة التي قرأته أولا (الغرب ضمن مشروع الاستشراق والهيمنة مثلا) قبل أن يصل إلينا في الغالب الأعم؛ فمن العسير القول إذئإن ما بين أيدينا من مؤلفات أسلافنا في شتى مناحي المعرفة يمكنه أن يفيدنا —بعد هذا التلوين المسبق- في تحقيق القراءة الخادمة لثقافتنا والحافظة لهويتنا التاريخية، كما أن هذا التراث بالشكل الذي هو عليه -وحتى بلا تلوين- غير قادر على إعطائنا الرؤية الشاملة عن مراحل نشأته وتطوره، أو على كشف إنجازاته وإخفاقاته من تلقاء نفسه، إذ لا بد لنا أن نمتلك المنهج المناسب والصبر الشديد والمثابرة المستمرة والموضوعية الكافية لتحقيق ذلك .

الثالث: إننا لم نتحقق بعد مما نريده من التراثو هذا يرجع إما: إلى أننا لم نحاول قراءة التراث وفهمه وفق ما نريده نحن منه، أو: إننا نقرأ تراثنا وفق ما يريده طرف آخر تحت دعوى الحداثة والعصرنة التي لا زلنا أسرى لها رغم أننا لم نحقق - بعد- وعليا كاملا بمتطلباتها وقضاياها وتحدياتها. وفي كل الحالات يمكن القول: إننا لم نحقق -بعد، وعيا

معاصرا وفهما جديدا لقضايا الفكر والمعرفة الإنسانية التي عالجها أسلافنا، فامتلكنا التراث وطوقنا قبل أن نمتلكه بالفهم ونطوقه بحسن التوظيف.

إن عملية الانتخاب والتعليق (اختيار النصوص التراثية وتحقيقها وقراءتها) بكثير من التعميم والعجلة لاتزال مستمرة في كثير من كتاباتنا، ويمكن أن نقول عن هذه الأزمة باختصار: إننا نكتب مايطلبه من االآخر، ولست أدري متى نبدأ في الكتابة عما نريده نحن وفقط نحن من تراثنا ودون أي ضغوط؟

1-السكاكي وجناية المعاصرين:

أقول هذا لأن بين يدي ما كتبه مصطفى الجويني في شؤون البلاغة في مقدمة دراسته (البلاغة العربية تأصيل وتجديد) من أنه قسم الكتاب إلى عدة فصول، وكل فصل ناقش فيه الأصول وأعقبها بما أسماه بالتجديد، يقول الباحث: ((والكتاب الذي أقدمه اليوم أردت منه أمرين: أن أقدم الأصول البلاغية أي الأسس الرئيسية من علوم البلاغة الثلاثة: المعاني والبيان والبديع مع استبعاد الجانب الفلسفي منها، وهذا ما وضعته تحت عنوان التأصيل، ثم أتبعته بأفكار تعيد النظر في تلك الأصول وتحول التجديد فيها تنقيبا عن مواطن جديدة للجمال وهذا ما أدرجناه تحت عنوان مباحث التجديد))(1) مع أنني لم ألمس له أي تجديد يذكر، والطريف المغرب أنه أقصى كثيرا من علماء الكلام الذين كان لهم الفضل في تطوير هذا العلم وتأسيسه على القواعد النظرية وإمداده بما يحتاج إليه من أدوات منهجية وتفسيرية، ويأتي على رأس هؤلاء أبو يعقوب السكاكي الذي يحسب له -فقط- حسن الترتيب والتقسيم، بينما يحسب عليه الجمود والتعقيد وإدخال المنطق العقيم في البحث البلاغي، وهذا قول مهدت له

أبحاث شوقي ضيف وعبد العزيز عتيق وزغلول سلام التي تمزج بين تاريخ النقد والبلاغة العربية(2)، وقد برر هذا الباحث استبعاد الجانب الفلسفي -كما زعم- بدعوى أن الدخول في ميدان هؤلاء يبعده عن التأصيل الذي يسعى إليه والتجديد الذي يطمح فيه، وليت شعري أي تأصيل هذا الذي يتجاوز كل هؤلاء العلماء الذين أصلوا ونظروا لمسائل اللغة والبيان وقواعد الفهم والنقد ،ولا يختلف هذا الموقف كثيرا عن ما قاله رجاء عيد في كتابه (فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور) عن جهود طائفة من علماء الكلام بما فيهم السكاكي قال: ((ثم رأينا ذبول هذه الدراسات، وتصوح مباحثها عند السّكاكي والفخر الرازي، ورأينا اجترار مباحث السابقين، ثم نهاية لهذا الاندحار في عصر البديعيات))(3)، ذلك رغم انه زعم في مقدمة الكتاب بأنه يسعى إلى التجديد وإعادة قراءة البلاغة بأفق معاصر((وتفهم كثير من المشكلات التي أصابت البحث البلاغي ودفعت به إلى تقنين صارم))(4) ولكنه في الأخير لم يقدم الشيء الكثير؛ فبعد مخاض عسير لم يستطع الخروج من عباءة اتهام السكاكي وغيره بالجمود كما رأيت، وتجدر الإشارة إلى أن هناك أبحاثا تتسم بالعمق والنضج وحققت كثيرا من التجديد والإضافة من دون كبير ادعاء، مثل أبحاث حمادي صمود ومحمد العمري وأحمد أبوزيد وغيرهم.

بيد أننا لانزال نخشى التعرض لعلماء الكلام، وتلك كانت -ولا تزال- الضريبة التي كلفتنا فهما خاطئا لنصوص كثيرة فكرية ونقدية وبلاغية، ولا نزال ننظر إلى هؤلاء المتكلمة نظرة المتوجس الخائف، وقد تكون قلة البضاعة سببا كافيا لهذه النظرة وهذا الإقصاء والنفور، أضف إلى ذلك تلك التصورات الخاطئة التي علقت بأذهاننا حول هذه الطائفة من المفكرين الممتازين، التي غالبا ما كانت تصور لنا على أنها عُصب

فكرية متناحرة، وفي خصام دائم وغير مفيد، وأحيانا أخرى تقدم لنا على أنها تعيش (ترفا فكريا) على كل المستويات بدءا بالديني والسياسي منها والإيديولوجي، كما أن صورة الزندقة والكفر والإلحاد هي الغطاء الذي لا تزال تتستر وراءه وتتعلل به هذه من الدارسات على طريقة الوعاظ، بعيدا تماما عن طموحات البحث المتخصص، وهربا من التعرض له -أي تراث هؤلاء المتكلمين- وقراءة أفكارهم وتحليل مقولاتهم بشكل منهجي وموضوعي منصف، وهذا في نظري يعبر عن مدى قلة التسامح الذي يعود بالأساس إلى قلة التواضع وقلة الفهم والبضاعة، كما أنه يعبر عن سعي منا مرتبك وغير جاد من أجل إعادة تركيب ثنائيات الصراع الفكري والسياسي والاجتماعي، وتكوين سليم صحيح لمعيار مناسب خاص يمكن أن يشكل منطلقا صحيحا لفهم واقع الفكر العربي الإسلامي في كل مراحله ووفق كل مستوياته وحاجاتنا منه.

إن مبدأ التصالح مع الذات ومع التراث والتفهم لخصوصيته يؤسس لمرحلة جديدة يبدو أننا لا نزال منشغلين عنها، ربما لأننا في السنوات الأخيرة واقعين تحت ضغوط ما يسمى "الاعتراف بالآخر" الذي ازداد الطلب عليه نتيجة إفرازات الحداثة وتمجيد الذات على حساب الآخر، والذي يعتبر الشعار الأكبر والأفضل للعولمة الثقافية التي تسعى إلى الهيمنة في شكل همجية معاصرة، أو ما يمكن وصفه بالبربرية المتحضرة التي تحتل فيها الحرب -بكل أنواعها وصيغها الممكنة- المساحة الأوسع، ويضطر السلم والأمن والمشاركة والحوار الهادئ فيها إلى الطريق الأضيق ويحشر إلى المسالك الوعرة.

إن من الواضح لمن تأمل كتاب "المفتاح" أن المدخل الأنسب لفهم جهد السكاكي والإفادة منه هو اللغة التي رأى أنها المنطلق الأساس لمعالجة مسائل البلاغة والبيان من حيث كونها أداة من جنس موضوعها (التعبير الأدبي) تخضع هي له بقدر خضوع موضوعها لها، وهذا ما أدركه ابن خلدون ونبه عليه في مقدمته، وبالتالي يمكن القول: إن ما وصل إليه الدرس البلاغي على يده إنما هو نتيجة طبيعية لتطور المعرفة الإنسانية في الفكر العربي الإسلامي وأساليب البحث فيها، وقد سبقه الفارابي(5) إلى هذا النوع من الدرس في الإفادة من علم اللغة في معالجة مسائل أدبية فلسفية ودينية وحتى سياسية، وإذا ما توقفنا عند دلالة عنوان الكتاب (مفتاح العلوم) تبين بوضوح أن اللغة هي الحامل الأهم لكل أصناف العلوم التي سيعالجها المؤلف في أبواب النحو والصرف والبيان والمعاني، لأنه يرى أن بمعرفة هذه العلوم الأداتية يمكن لعلوم البلاغة أن تحقق ذاتها وخصوصيتها في الفكر العربي، وتؤدي وظيفتها في فهم سر إعجاز القرآن وتذوقه كما صرح في مقدمة الكتاب، وبها أيضا يمكن أن تستمر في تحقيق مطالب الفهم والقراءة والإبداع معا، يقول ابن خلدون منوها بجهد السكاكي في توجهه هذا النحو من البحث:

((وكان من حق علم اللغة التقدم لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير، بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسند والمسند إليه، فإن تغير بالجملة ولم يبق له أثر، فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة وليست كذلك اللغة))(6).

إن الوظيفة الأساسية لتعلم النحو هو المحافظة على النظام اللغوي الذي به يتحقق المعنى في العملية التواصلية والإبداعية ؛ وبذلك فوجود اللغة من غير نظام يحيل على فوضى لا معنى لها، أو أشبه ما تكون بأصوات معجمة، كما أن الإعراب من حيث إنه تغير في أواخر الكلم ليس ثابتا بل هو متغير بتغير مقاصد المتكلم (المعاني والدلالات) .

وقد حاول ابن خلدون تفسير كثير من قضايا علم اللغة، منها ما يتعلق بالتعلم كالنحو والصرف، وفسر ذلك بكون اللغة مكتسبة وليست بالطبع، مؤكدا ذلك بمثال الطفل الذي يستطيع تعلمها بيسر وسهولة، مضيفا أن الإنسان متى تعلم لغة من اللغات في هذه المرحلة المتقدمة كانت له بالسليقةو الطبع، على خلاف من تعلمها في الكبر، كما تحدث عن الذوق الذي يريد تعلمه من تعاطى البلاغة ممارسة، وقرر ابن خلدون أن تحصيلها على الوجه الصحيح ليس يُكتفى فيه بتحقيق علم النحو والصرف ؛ إذ في إمكان المرء أن يكون نحويا بارعا غير أن ذلك لا يجعله بليغا، وضرب لذلك مثالا بالنحويين أمثال سيبويه من الأعاجم الذين كانوا يحسنون علم النحو غير أنهم لا يحسنون تعاطي البلاغة والإنشاء .

وقد رسم ابن خلدون الغاية الأولى من تعلم البيان فقال:

((واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن وبيان ذلك أن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقةو مفهومة))(7).

وهذا هو سر فهم العرب لمقاصد القرآن الكريم ومعرفتهم بطريقته في الدلالة على المراد منه من أقصر طريق وهو (الإيجاز)، فأتوا فهمه بالسليقة التي ركبت فيهم وهي

ما أسماه ابن خلدون (الذوق) فقال: ((والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكونو أصحه))(8).

والذوق عند ابن خلدون هو المراد من تعلم البلاغة معرفةو تطبيقا، لكي يتحقق معنى الإعجاز عند بقية الأمم الأخرى (الأعاجم)، ولما كان النحو من الأصول الواجب تعلمها لأنه المدخل السليم إلى علم المعانيو طرائق الدلالة فقد أدخله ابن خلدون في علوم اللسان قال :

((هذا العلم " البيان " حادث في الملة بعد علم اللغة العربية، وهو من العلوم اللسانية لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده، ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني، وذلك أن الأمور التي يقصد المتكلم بها إفادة السامع من كلامه هي إما تصور مفردات تسند ويسند إليها، ويفضي بعضها إلى بعض والدلالة على هذه هي من المفردات من الأسماء والأفعال والحروف، وإما تميز المستندات من المسند إليها، والأزمة ويدل عليها بتغير الحركات من الإعراب وأبنية الكلمات وهذه كلها هي صناعة النحو))(9).

وهذه النصوص تكاد تكون شرحا وافيا لما كتبه كل من الجرجاني في (دلائل الإعجاز) والسكاكي في (مفتاح العلوم)؛ فكأن ابن خلدون يدافع عن هذا التقسيم المحكم لعلوم البيان وهذا ما توحي به عبارته وتصرح به عباراته، مع تقديم التحليلات الدقيقة لحكمة هذا الترتيب الذي اعتمده صاحب المفتاح، فهل يصلح أن نقول عنه بعد كل هذا ما قاله أحد الباحثين : ((بلغ الأمر بالسكاكي أن ادعى في مفتاحه أن الاستعارة والكناية وغيرهما من مسائل علم البيان ما هي إلا أقيسة منطقية وإلزامات

يستعملها المتكلمون لإقناع المخاطبين بما يريدون إثباته أو نفيه من نظريات وآراء))(10).

لقد أوردنا نظرة ابن خلدون في هذه المسائل باعتبار أنها أقرب إلينا زمنيا من السكاكي، والحاضر له أولوية عل الغائب (نص السكاكي)، فما مدى تداخل النصين يا ترى ؟ وإلى أي حد يمكن القول بأن ابن خلدون كان قارئا جيدا السكاكي. هذا ما سنعرفه عندما نورد آراء السكاكي في المسائل نفسها التي تحدث عنها ابن خلدون.

2– مفاتيح قراءة المفتاح

يتهم السكاكي (ت: 626 هـ) إذن بأنه أول من أدخل المنطق في البلاغة من خلال إقحام علاقات وتفريعات في الجزء الذي خصصه للاستدلال، وقد كان المحدثون والمعاصرون من النقاد على السواء في هذا الأمر، يقول عبد العزيز مصلوح:

((لا تكاد تخلو دراسة أو كتابة لأحد من البلاغيين المحدثين أو أهل التجديد من صفحات يحمل فيها كاتبها مفتاح العلوم إصر ما أصاب البلاغة من جمودو جفافو عقم، حتى غدا هذا القول من البديهيات المسلمة)) (11) .

وللوقوف على حقيقة هذه المسألة التي بدأت تثير شكوكا في القراءات السابقة التي انتهى بها المطاف بوصفها بلاغة منطقية عقيمة، ولبيان قيمة مجهود السكاكي وتخليصه من لبوسه اليوناني الذي غدا حكما جاهزا زهّد الدارسين في فحص كتاب المفتاح؛ لأجل كل ذلك رأينا أنه لابد أن نعيد فحص هذه المقولات وإعادة قراءة

جهود الرجل بالعودة إلى متن الكتاب والظروف المعرفية والفكرية التي أحاطت بمؤلفه، وبحسب ما تسمح به طبيعة البحث هنا طبعا.

إن المتأمل لمقدمة كتاب (مفتاح العلوم) للسَّكاكي، ولأول وهلة يستطيع أن يقرأ فيها حكما مغايرا تماما لما أشيع عنه، كما يدرك أن الإطار والأفق المعرفي الذي يتحدث منه السكاكي هو الذي يضع قراءتنا لهذا الكتاب في الطريق الصحيح، إذ أعلن منذ البداية أنه أضاف أو درس أشياء لم ينتبه إليها السلف(12)حيث يقول :

((وما ضمنت جميع ذلك كتابي هذا إلا بعدما ميزت البعض عن البعض التميز المناسب ولخصت الكلام على حسب مقتضى المقام هنالك، ولخصت لكل من ذلك أصولا لائقة وأوردت حججا مناسبة، وقررت ما صادفت من آراء السلف قدس الله أرواحهم بقدر ما أجملت من التقرير مع الإرشاد إلى ضروب مباحث قلت عناية السلف بها، وإيراد لطائف مفتنة ما فتن بها رتق إذن)) (13).

إن ما فعله السكاكي إذن هو جهد نوعي يقوم على استحداث مسائل دقت عن عناية السلف بها، وهي مجموعة لطائف جدت في عصره، يتعلق الأمر هنا ببعض المباحث التي أولاها هو اهتماما خاصا رأينا أن ننبه عليها في هذا البحث من خلال العناصر التالية:

أ- اللغة مدخلا أساسيا لدراسة المعنى في الشعر: وهي مما يعين على فهم أحكام الله تعالى التي جاء بها القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين، والأمر هنا يختص بتعلم البيان؛ ذلك أن الوظيفة الأساسية التي نهضت لها جهود أسلافه هي

الاحتراز عن الخطأ في المفردو المركب، ولما كان الكلام كله يرجع إليهما فقد وجب البدء بما منه يتألف المركب، وهذا هو موضوع علم الصرف، ثم ما منه يتألف الكلام وهو موضوع علم النحو، والثالث الذي يختص بالنظر في مطابقة المعنى المؤلف لحال المتكلم وهو لب البلاغة.

ب- مصطلح العلم والصناعة: وهو مصطلح ليس جديدا في بابه بل له علاقة بما اصطلح عليه ابن سلام والجاحظ ب (الصناعة)(14)، غير أن وجه الدقة في المصطلح عند السكاكي هنا أنه يقصر مهمته على العلم الذي يشير إلى مجموع القواعد والأسس والقوانين التي تنتظم علم اللغة بمباحثها المختلفة: علم النحو وعلم الصرف، وعلم التراكيب، وكأننا بالسكاكي يحاول تحديد المضمر في مصطلح ابن سلام الذي يقترن بالخبرة والدراية التي يميز الناقد بها الجيّد من الرديء في الشعر، فيريد أن يكمل النقص ويستدرك على ابن سلام الذي كان له الأثر الكبير في التنبيه على مسألة الذوق والخبرة الجمالية التي تنتج عن كثرة تعاطي الشعر وحفظه (15).

إن السكاكي يريد إعادة ترتيب العملية النقدية من خلال التقعيد للمنطلقات الأساسية التي يتأسس عليها الخطاب الأدبي، وهذا هو مضمون وموضوع (علم الأدب) كما صرح به السكاكي بكل وضوح، أو القاعدة والنظام الذي يبحث به العمل الأدبي. لذلك سمّى كتابه (مفتاح العلوم) واهتم بعلم الأدب من حيث أنه مجموع القواعد الماديةوالنظرية التي يتشكل منها الخطاب الأدبي، ويشير كل ذلك إلى أن الإحاطة بعلم الأدب –وهو المفتاح – لا تنتج لنا مبدعا جيدا ولا قارئا جيدا بالضرورة، لأن العملية الإبداعية تقع خارج العلم، أو أنها شيء آخر قال عبد القاهر

الجرجاني أنه تحيط به المعرفة ولا تؤديه الصفة، وقال عنه السكاكي نفسه: ((واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحة، ومدرك الأعجاز عندي هو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين))(16)، ويقصد بذلك علم المعاني وعلم البيان، أي أن سر الإعجاز يقع خارج التراكيب اللغوية والنحوية والصرفية وإن تشكل منها، ومن هنا نفهم لماذا قل كتاب الرجل نسبيا من تحليل الشواهد وتذوقها، إنه أمر يحتاج إلى جهد آخر لا يتم دون تعاطي الإبداع وقراءة النصوص، وتشكيل الذوق الأدبي الذي هو المهمة الأساسية للمؤلفو القارئ على السواء.

ج- العلم والذوق: وهي الثنائية الأساسية التي ينبغي أن نفهم من خلالها جهود السكاكي بعيدا عن الاتهام والنظرة القاصرة التي قدمها بعض الدارسين المحدثين(17)، وإلا فهل من الصحيح القول بأن السكاكي يريد أن يضع علما أو قانونا عقيما للبلاغة بعدما سمّى كتابه المفتاح، وبعدما قال فيه بكل وضوح وصراحة مدركا خطورة ما يقبل عليه :

((واعلم أن الأدب متى كان الحامل على الخوض فيه مجرد الوقوف على بعض الأوضاع وشيء من الاصطلاحات فهو لديك على طرف التمام، أما إذا خضت فيه لهمة تبعثك على الاحتراز عن الخطأ في العربية [وهي جهود السابقين في تعقيد القواعد وتأصيل الأصول] وسلوك جادة الصواب فيها اعترض دونك منه أنواع تلقى لأدناها عرق القربة، لاسيما إذا انضم إلى همتك الشغف بالتلقي لمراد الله تعالى (...) فهناك يستقبلك منها ما لا يبعد أن يرجعك القهقرى))(18).

يميز السكاكي هنا بين الجانب النظري ذي الطبيعة التصورية والذي تبدو فيه المعالجات العلمية تأصيلا وتعقيدا في غاية الانسجام والسلامة عادة (تطابق الفكر مع ذاته)، وقد عبر عن ذلك بـ (الوقوف على بعض الأوضاع والاصطلاحات) التي يبدو الأمر فيها على طرف التمام على المستوى النظري أي (مجرد العلم بمسائل البلاغة والبيان)، وبين الممارسة الكلامية وتعاطي البلاغة والفصاحة إنتاجا وتلقيا بقصد الاحتراز عن الخطأ في العربية وإصابة المعنى المراد بأيسر طريق فحينها ((سيعترض دونك منه أنواع تلقى لأدناها عرق القربة)) أو كما قال.

ويزداد الأمر صعوبة والفهم نكوصا وتقهقرا- بحسب السكاكي- عندما يكون مسعانا هو التلقي لمراد الله تعالى أي للقرآن الكريم فهما وتفسيرا، وهنا تتجلى المهمة الصعبة التي أدرك أهميتها وخطورتها السكاكي، والتي نشط لتبيانها وشرحها لها بعد إلحاح من أهل الفضل والكمال في زمانه، ولهذا السياق الذي ولدت فيه هذه الدراسة دلالة خاصة تعبر عن حاجة الخاصة من الناس -على الأقل- إلى مثل هذا العمل الجاد الذي يذلل لهم سبل الإحاطة بشؤون البلاغة، ويجعلهم قادرين على تعاطيها فهما وممارسة، فمن العسير علينا القول، بعد هذا الإدراك العميق لخطورة المهمة، بان عمل السكاكي كان تجريديا عقيما شاحبا كما وصفته معظم الدراسات البلاغية الحديثة المعاصرة.

فإذا سلمنا بمبدأ أن المصطلح يعبر عن آمال ويطرح هموما وانشغالات معينة في فترة ميلاده، اتضح لنا أن مهمة السكاكي كانت بالدرجة الأولى وضع الإطار العلمي المحدد لموضوعات محددة يمكن من خلالها فهم طبيعة موضوع علم الأدب ومنهج

البحث فيه، يتعلق الأمر هنا بتحديدات مهمة لما منه يتألف الأدب شعرا ونثرا بدء بالكلمة فالجملة فطريقة التركيب بينهما، كل ذلك رغبة منه في تحديد الأدوات التي بها نستطيع الإمساك بزمام المعنى الذي شعر بأنه يتأبى على التحديد كلما اتجهنا نحو نصوص الشعر والنص القرآني.

غير أنه يقرر بأن هذه التحديدات المهمة لوحدها لا تكفي، وهو يدعونا بذلك إلى أن نفرق بين حدود العلم الذي من مهمته أن يدرس موضوعا محددا ليضع له أسسا وقواعد وقوانين نلجأ إلى الاحتكام إليها أثناء احتدام الرأي وتصارع التأويلات للحد من نسبة هذا التفلّت والاختلاف، وبين طبيعة الموضوع الزئبقية والذي لا يكتفي بدراسته في هذه التحديدات ؛ إذ يقتضي الأمر كثيرا من الدربة والخبرة في التعاطي مع النصوص الأدبية شعرا ونثرا لأنها الأقدر على صياغة الذائقة الأدبية، وتنمية مستوى الاستجابة الجمالية وبخاصة في مواجهة النص القرآني الكريم .

ولأمر ما اتفق كل من ابن خلدون والسكاكي في التشديد على مسألة الذوق في الإحساس بالجانب الجمالي للنص القرآني، وفي الاعتراف بالتفاوت في هذا الإدراك على قدر إحاطة المتلقي بعلوم البيان فهما وممارسة، يقول السكاكي :

((وبعد، فإن نوع الأدب نوع يتفاوت كثرة شعب وقلة، وصعوبة فنون وسهولة، وتباعد طرفين وتدانيا، بحسب حظ متوليه من سائر العلوم كمالا ونقصانا (...) ولذلك ترى المعتنيين بشأنه على مراتب مختلفة))(18).

ويلوح على هذه العبارة الإحساس بأزمة البحث في إعجاز القرآن واختلاف مراتب فهمه، وكذا اختلاف طرق الاستدلال على إعجازه في الدراسات التي سبقته،

وبالأخص منها كتابات عبد القاهر الجرجاني التي كان لها حضورا مهما في هذا الكتاب وهو ما يحتاج تبيانه إلى بحوث أخرى.

خـــاتمة:

في ختام هذا البحث الموجز ينبغي التأكيد على قمة كتاب المفتاح ومنهجيته المتميزة، وطريقته الدقيقة المتأنية في معالجة المباحث النقدية والبلاغية واللغوية وهذه غاية هذه السطور، أما استقصاء كل مباحث الكتاب وتبيان أثره في خدمة البلاغة العربية، فمما تضيق عنه هذه الأسطر العجلى.

ومهما يكن موقفنا من جهد الرجل واختلافنا حول آرائه فإن علينا أن نصحح طريقة التعامل مع هذا الكتاب وغيره من كتب التراث ومن أفق واع ومسؤول، كما علينا التخلص من الأحكام الجاهزة وأحكام القيمة من إجل مواجهة تراثنا النقدي في مصادره الأصيلة بإنعام وتبصر في التحليل، وبشجاعة ونزاهة وصبر في النظر والتأويل، وبتؤدة في القراءة إذا أردنا حسن الاستفادة منه وتحديثه.

-هوامش البحث-

(1)مصطفى الجويني: البلاغة العربية تأصيل وتجديد، منشأة المعارف-الإسكندرية 1985م، مقدمة الكتاب.

(2)ينظر في هذا: البلاغة العربية تطور وتاريخ لشوقي، دار المعارف، ط9، دون تاريخ وذكر ذلك بشكل عام، وكتاب: في البلاغة العربية لعبد العزيز عتيق الذي ذكر هذا تحديدا في ص272، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان .

(3)رجاء عيد: فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور: منشأة المعارف-الإسكندرية، ط2، دون تاريخ،ص43.

(4)نفسه: الصفحة نفسها .

(5)ينظر كتاب الحروف مثلا، حيث يستخدم الفارابي البحث في نشأة اللغة وتطورها للحفر حول تطور العقلية العربية في مراحلها المختلفة .

(6)ابن خلدون: المقدمة، تحقيق خليل شحاذة ومراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت-لبنان، 2001م، ص753.

(7) نفسه: ص762.

(8) نفسه: ص762.

(9)نفسه: ص759.

(10)ينظر كتاب: في البلاغة العربية لبشير كحيل، دار الآداب - القاهرة، 2004، ص121.

(11)عبد العزيز مصلوح: البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، عالم الكتب - جامعة الكويت، ط1، 2006م، ص 29، ينظر مثلا: البلاغة تطور وتاريخ لشوقي ضيف، وفي تاريخ البلاغة العربية لعبد العزيز عتيق : ص272، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان، كما أن تهمة إدخال المنطق في الدرس البلاغي تتكرر حتى في دراساتنا المعاصرة بمبرر وبغير مبرر، وتتسع أحيانا لتشمل حتى أعمال الجرجاني. ينظر الرد على هذه النظرة في : بنية العقل : الجابري : ص81، أما عن البلاغة فالحق أن السكاكي لم يتحدث عنها بمفهومها العام، وإنما تحدث عن الوسائل التي يمكن أن تساعد الناقد في ملاحقة المعنى وتطويق الدلالة: ينظر اتجاهات النقد لمحمد عبد المطلب .

[12]وقد ذكر سبب تصنيف هذا الكتاب فقال : ((ورأيت أذكياء أهل زماني الفاضلين الكاملي الفضل قد طال إلحاحهم علي في أن أصنف لهم مختصرا يحظيهم بأوفر حظ منه، وأن يكون أسلوبه أقرب أسلوب من فهم كل ذكي، صنفت هذا))مفتاح العلوم: السكاكي، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت _ لبنان _ ط3، 2014 م، ص39 .

[13]نفسه : ص37 .

[14]ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء : تح : محمد شاكر، ج1،ص05 .

[15]نفسه: 1/06-07.

[16]المفتاح:ص526.

[17]سبق ذكر بعض النماذج في صدر هذا البحث .

[18] المفتاح: ص38-39 .

[19]نفسه: ص 05 .

المصادر والمراجع

(1) مصطفى الجويني: البلاغة العربية تأصيل وتجديد، منشأة المعارف-الإسكندرية 1985م .

(2) رجاء عيد: فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، منشأة المعارف-الإسكندرية، ط2، دون تاريخ .

(3) عبد الرحمان بن خلدون: المقدمة، تحقيق خليل شحاذة ومراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت-لبنان، 2001م .

(4) ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني-القاهرة.

(5) بشير كحيل: في البلاغة العربية، دار الآداب - القاهرة، 2004م.

(6) عبد العزيز مصلوح: البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، عالم الكتب - جامعة الكويت، ط1، 2006م .

(7) شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف- القاهرة ،ط9، دون تاريخ .

(8) عبد العزيز عتيق: تاريخ البلاغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان .

(9) محمد عابد الجابري: بنية العقل، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط8، 2007م.

(10) أبو يعقوب السكاكي: مفتاح العلوم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط3، 2014 م .

(11) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، علق عليه السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط3، 2001م .